

التحديات الأمنية في القدس العثمانية من خلال المصادر الفرنسية في القرن الثامن عشر . تمرد البدو نموذجا

Securiety Challenges In Ottoman Jerusalem Through French Sources During The Eighteenth Century. Bedouin Rebellion As An Exemple.

الطار خيرة

- جامعة الجزائر - 2 - أبو القاسم سعد الله ، kheira.eltar@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2024/10/20 تاريخ القبول: 2025/01/11 تاريخ النشر: 2025/01/31

ملخص: لا تزال الكتابات التاريخية التي تناولت بالبحث و الدراسة موضوع البدو وتهديداتهم المستمرة للوجود العثماني في بلاد الشام خلال القرن الثامن عشر قليلة لاسيما المصادر الفرنسية منها، وما كتب جاء في معظمه كلاما سطحيًا وعاما عار من الصحة وتغلب عليه الرواية السمعية، غير أن انتقال رحالة وإقامتهم بأنفسهم وسط البدو لشهور طويلة جعل الضوء يسقط من جديد عليهم وعلى تهديداتهم التي أخذت منحى سياسي خطير -خاصة باعتداءاتهم المتكررة على قافلة الحج الشامي التي تجسد هيبة السلطان العثماني- باتت تشكل مصدر قلق دائم للدولة العثمانية، شأن الرحالة الفرنسي دي فولني الذي زار مصر وسورية ما بين سنوات 1783-1784-1785 ونشر رحلته في كتاب من جزأين سنة 1787 حمل عنوان :

Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant Les Années 1783-1784-1785

نستنتج من هذا البحث أن الرحالة الفرنسي فولني لم تختلف أفكاره عن غيره من الرحالة الأجانب المتكالبين على الدولة العثمانية والذين حملوها مسؤولية تمرد البدو بل كل الحركات الانفصالية. حيث دعا وشجع على تطبيق النظرية الإستعمارية في هذه المنطقة التي توصف بقلب العالم القديم .

الكلمات الدالة: القرن الثامن عشر - بلاد الشام - البدو - الدولة العثمانية- فولني- الحركات الانفصالية - الرحالة.

Abstract

The historical writings that dealt with research and study on the issue of the Bedouins and their constant threats to the Ottoman presence in the Levant during the eighteenth century are still few , especially the French sources and what was

written was mostly superficial and general talk that was untrue and overpowered by the audio narration. However, the movement of the travellers and their residence among the Bedouins for many months made the lights shine on them and their threats which took a dangerous political curve especially their repeated attacks on the Shami pilgrimage caravan, which embodies the prestige of the Ottoman Sultan, became a constant source of concern for the Ottoman Empire, like the French traveller De VOLNEY who visited Egypt and Syria between the years 1783-1784-1785 and published his journey in a two-part book in 1787, it which bore the title :

A Journey To Syria And Egypt During The Years 1783-1784-1785.

We conclude from this research that the French traveller Volney's idea did not differ from those of other foreign travellers who rebelled against the Ottoman empire and who held it responsible for the Bedouin rebellion. Rather, all Volney called for the application of colonial theory in this region which is described as the heart of the ancient world .

Keywords: The Eighteenth Century- Bilad El Sham- Bedouins - Ottoman Empire. - De Volney –travellers - separatist movements.

- مقدمة:

يعود التواجد العثماني في بلاد الشام إلى النصف الأول من القرن السادس عشر ، حيث تمكن السلطان سليم الأول (1512/1520) من دخولها بعد الانتصار العسكري الكبير الذي حققته قواته على حساب المماليك وقتل قونصوة الغوري في معركة مرج دابق 1517م. ومنذ هذه الفترة وإلى غاية القرن الثامن عشر عانت الدولة العثمانية من تمردات البدو في هذا الفضاء خاصة باعدياتهم المتكررة على قافلة الشامي التي تجسد هيبة السلطان العثماني

لا تزال الكتابات التاريخية التي تناولت بالبحث و الدراسة موضوع البدو وتهديدهم المستمرة للدولة العثمانية خلال القرن الثامن عشر قليلة لاسيما المصادر الفرنسية منها، وما كتب جاء في معظمه كلاماً سطحياً وعاماً عار من الصحة وتغلب عليه الرواية السمعية، غير أن انتقال رحالة وإقامتهم بأنفسهم وسط البدو لشهور طويلة شأن الرحالة الفرنسي دي فولني الذي زار مصر وسورية ما بين سنوات 1783-1784 ونشرها في كتاب من جزأين عامين قبل اندلاع الثورة الفرنسية أي سنة 1787 حمل عنوان :

Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant Les Années 1783-1784-1785

إن هذا الكتاب يفتح آفاق الدراسة حول البدو وطبائعهم على مصراعيها خاصة وأن الجزء الثاني من الكتاب خصه الرحالة دي فولني لسوريا دراسة عامة مفردا للبدو قسماً كاملاً . وهو الأمر الذي جعلنا نقدم هذه الدراسة بالاعتماد على هذا المصدر الهام لمعرفة تفاصيل حياة البدو وتحديد أسباب تهديداتهم للوجود العثماني خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

الإشكالية المطروحة :

ما هو أصل البدو ؟ فيما تمثلت طبائعهم وعاداتهم ؟ ما طبيعة الحكم عندهم ؟ كيف كانت علاقتهم بالدولة العثمانية ؟ ولماذا تمردوا عليها ؟ وما هو موقف الرحالة الفرنسي فولني منهم ؟.

إن هذا البحث المتواضع كما تمت الإشارة إليه آنفاً يهدف إلى إمطة اللثام عن أخطر الصعوبات التي واجهتها الدولة العثمانية في منطقة بلاد الشام خاصة خلال القرن 18 على المستوى الداخلي ، وكيف استغلت القوى الأوروبية من خلال كتاباتها الإستشراقية في تذكية هذا الصراع بل وإلى تحميل الدولة العثمانية مسؤولية بروزه من جراء اتهامها بسوء التسيير و الإستبداد الممارسين على سكان المنطقة . ولأجل مناقشة هذه الأفكار كلها ، اعتمدنا على الأسلوب التاريخي تحليلاً واستنتاجاً مع مراعاة المقارنة بين الأحداث التاريخية نقلاً عن مصادرنا المختلفة سواء كانت عربية أو أجنبية .

يعتبر تاريخ البدو^أ ، (ابن خلدون، 1961، صفحة ص 179) هو تاريخ العرب الحضر نفسه بل هم أصل العنصر العربي ، غادروا شبه الجزيرة العربية نحو بلاد الشام ومصر على شكل موجات تتابع ورودها منذ آلاف السنين (زكرياء، 1945، صفحة ص 66) لتتلاقم مواسم القحط والجفاف وقلة الغذاء أو لتتناحر القبائل فيما بينهم ودائماً كان السبب هو البحث عن الماء والغذاء (زكرياء، نفسه ، صفحة ص 67)

أ - البادية هي اسم الأرض التي لا حضر فيها وإذا خرج الناس من الحضر إلى المراعي في الصحاري قيل قد بدوا ، والاسم البدو.

إن البدو الحقيقيين بتعبير الرحالة الألماني أوبنهايم^٣ (أوبنهايم، 2007، الصفحات ص 33-37) هم قبائل رحل أقحاح و مربو جمال ينتقلون من مكان لآخر بحثاً عن الماء و المراعي، فهم ساكني الصحراء الرملية و الصخرية (ف، 1949، صفحة ص 237)، اعتبرهم الرحالة الفرنسي " فرانسوا فولني " نموذجاً غريباً عن المجتمع الأوربي (Francois, 1787, p. p 348) لذا أمعن في تمثيل ووصف حياتهم . فمن الصعب على الأوربيين عامة و الفرنسيين خاصة أن يروا شعوباً مشردة ويتصوروا نمط معيشتهم ، بل من المستحيل عليهم تصور الصحراء، فكيف إذا كانت هذه المناطق الجذباء الجرداء أهلة بالسكان (يسود البادية اقليم صحراوي قاس بموسمين ،صيف حار جاف وشتاء بارد شبه جاف (زكرياء، المرجع السابق ، الصفحات ص 31-32)).

أرجع فولني تنقل البدو إلى سببين رئيسيين :

1- العامل الطبيعي: إن طبيعة الأرض القاحلة وقسوة المناخ ساهمت بشكل كبير في هجرة البدو لشبه الجزيرة العربية.

2- العامل السياسي: يحمل فولني الحكومة التركية مسؤولية تنقل البدو فهي علة العلل (Volney, p. p 349) حسب رأيه، لأن بلاد الشام ليست قاحلة بل هي أرض صالحة للزراعة وغنية بالمياه.

إن سكان سوريا لم يختاروا الترحال و التشتت بل كان إرغاماً و إكراهاً وهروباً من استبداد الحكام الأتراك وظلمهم لأنه من طبيعة الإنسان ميله للاستقرار واستغلال الأرض خاصة إذا كانت خصبة وزراعية شأن أراضي سورية . إن الحكومة التركية ألححت بالجور على سكان القرى فهجروها إلى الجبال أو تشردوا في الصحراء ، وحسب فولني دائماً فمن الأضمن لسكان يعيشوا في ظل الحكومة التركية أن يعيشوا بدوا رحلاً لا زراعاً مستقرين (Volney, pp. p 349-350)

يشير فولني إلى أن اختلاف عدد قبائل البدو^٤ (أوبنهايم، صفحة ص 9) مرتبط باختلاف طبيعة السطح ، إذ يقل عددها في الأراضي المقفرة كصحراء السويس و

ب - ماكس فراهيبر فون أوبنهايم ، (1860-1946)، رجل قانون وديبلوماسي ، سياسي ومستشرق عالم آثار ورجل مخابرات قام بالعديد من الرحلات إلى الشرق مثل تركيا ، سوريا و الهند ،التقى في إسطنبول بالسلطان عبد الحميد الثاني ،زار الجزائر سنة 1905 لحضور مؤتمر الإستشراق من أهم مؤلفاته ، رحلة عبر البادية السورية وبلاد ما بين النهرين .

ج- تتكون القبيلة من وحدات هي البيت وهو أصل القبيلة ، الفخذ وهو عدة بيوت من جد قريب لا يتجاوز الجد الخامس العشيرة وهي عدة أفخاذ تعيش مجتمعة ، أما القبيلة تتألف من عدة عشائر بينما الإمارة تتكون من عدة قبائل

البحر الأحمر وجزء كبير من صحراء نجد بالحجاز بينما يكثر عددها بين بادية الشام (زكرياء، المرجع السابق ، صفحة ص 43) ، حلب^د ، (بيات، 2007، صفحة ص 182+183) ، حوران^د (دونيك، 2009، الصفحات ص 274-275) و غزة^د (ودومينيك، صفحة ص 688) حيث وفرة النبات والنشاط الزراعي (Volney, op, cit, p. p 351) إذ قدر الرحالة أوليا جلبي عدد أمراء البدو ومشايخهم من الشام وحتى الحجاز بـ 70 أمير (بيات، دراسات في تاريخ العرب في العهد العثماني ، 2003، صفحة ص 139) .

إن قساوة الظروف الطبيعية وشح المناخ لم يتسببا في تنقل البدو فقط (فولني، صفحة ص 236) بل كان لهما الأثر السلبي على أجسامهم التي بدت نحيفة وهزيلة^د (فولني، نفسه ، صفحة ص 239) وعللها فولني بقلة الغذاء الذي لم يكن يتعد في الكثير من المرات سبع تمرات مغموسة بالسمن وبعض اللبن (Volney, op, cit, p. p 359) ، أما اللحم فهو لا يراه إلا في الأعياد والأفراح أو المآتم وهو ما يتعجب له فولني فكيف لمثل هذا الغذاء أن يضمن العافية للبدو عكس سكان الحضر الذين يعانون من النحافة والهزال وكثير من الأمراض؟

2/ **طبائع البدو:** أشار الرحالة الفرنسي فولني بكثير من الإستغراب و التعجب إلى عادات البدو وتقاليدهم في المسكن و الحرب و الثأر و الكرم بل وحتى في الصناعة و العلوم .

أ/ **مخيمات البدو :** يسكن البدو في خيم منسوجة من وبر الماعز أو الإبل بألوانها السوداء أو الصفراء عكس قبائل التركمان ذات اللون الأبيض (فولني، المصدر السابق ، صفحة ص 359) موزعة في شبه حلقة غير منتظمة وعلى أبعاد متفاوتة تظهر من بعيد كبقع سوداء لقلة ارتفاع أوتادها (فولني، نفسه ، صفحة ص 243) ، تنقسم كل خيمة إلى شطرين بحجاب فاصل يخصص أحدها للنساء كما يشير إلى أن مخيمات البدو غير محصنة بالمatarيس بل الكلاب كفيلة بهذه المهمة ، وهو ما يشجع على انتشار حوادث السرقة و التعدي والخطف في نظره (فولني، نفسه ، صفحة ص 245)

د- هي هضبة مرتفعة عن سطح البحر ما بين 500-1000م من شرقي دمشق حتى الحدود العراقية.
هـ- مدينة شمال سورية مركز الطرق التجارية م الإسكندرونه الى المتوسط ، عاصمة ايالة حلب منذ عهد السلطان القانوني سنة 1549 .

و- تقع جنوبي دمشق، قرب هضبة الجولان ، تربط بين سوريا و الأردن و منها إلى العراق و السعودية .

ز - مدينة فلسطينية ساحلية تطل على المتوسط .

ح- أشار الرحالة فولني ، أنه أيام الشيخ ظاهر العمر ، وصل بعض فرسان البدو إلى عكا فأثاروا فضول السكان ما قد أثار عندهم متوحشو أمريكا ، إذ كانوا أنحف بنية وأنحل جسما وأشد سوادا من أي بدوي عرفوه.

ب/ طبيعة الحكم عند البدو : يخضع أفراد القبيلة إلى حكم كبيرهم الملقب بالشيخ أو السيد الذي تزداد هيئته بازدياد عدد أقربائه و أولاده وأحفاده، كما يقاس فقر البدوي بفقر شيخه (volney, pp. p 369-370) .

تعتبر العصبية القبلية الأساس في اجتماع وتكاتف القبيلة وفي تسيير شؤون الحكم فيها يعتبره فولني حكماً جمهورياً أرستقراطياً و استبدادياً في الوقت ذاته (أوبنهايم، المصدر السابق ، صفحة ص 9)، هو جمهوري لأن أفراد القبيلة هم أصحاب الكلمة الأولى في جميع القضايا ، فلا يقضي شيخ القبيلة في أمر إلا برضى الغالبية وموافقتها . وهو أرستقراطي لأن أسرة شيخ القبيلة أو السيد تنعم بامتيازات تستند الى القوة ، وهو استبدادي لأن للشيخ سلطة لا متناهية بل وتكاد تكون مطلقة (فولني، المصدر السابق، صفحة ص 245)

وقد أشار الرحالة أوبنهايم إلى أن قيادة البدو يغلب عليها طابع الحرية ، العصبية والوحشية لكثرة التجوال والتنقل فلم تكن لهم مدينة اجتماعية ولا حكومة سياسية وإنما كان المجتمع مجتمع القبيلة و الخيمة لا مجتمع الشعب و الأمة، فالحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث و يحكمون بالعرف (أوبنهايم، المصدر السابق ، صفحة ص 133)

3/ عادات البدو : من أكبر العادات التي أثارت فضول و استغراب فولني واستوقفت اهتمامه شريعة الثأر التي تفرض افتداء دم لا تسقط أحقيته بالتقادم . فمن أهمل الأخذ بالثأر لحق به العار ، حيث تنتقل هذه الأحقاد كالإرث من الأب إلى الأبناء ولا تحمد نارها إلا بهلاك أحد المتخاصمين أو بالاتفاق على فدية من المال أو الماشية ، وما عدا ذلك فلا صلح ولا مهادنة ولا مصاهرة بين المتنازعين . قد تتعدى شريعة الأخذ بالثأر إلى مادون القبيلة الواحدة فتصبح القبائل في حالة حرب معتادة وهو ما جعل فولني يصف مجتمع البدو بالمحارب رغم كونه لا يتقن فنون الحرب لبساطة أسلحته التي لا تتعدى الخيل ، الرمح الطويل ، السيف المعقوف و بعض البنادق لا تتعدى حسب ذات الرحالة دائماً ببعض الجمال ، النوق الماعز الدجاج و الفرس مع سرجها إضافة إلى بعض الأواني المنزلية البسيطة كمطحنة القهوة التي تأتي في المقدمة (فولني، المصدر السابق ، صفحة ص 246)

رغم هذه الممتلكات البسيطة ، يضع البدوي الجائع فضيلة الكرم على رأس الفضائل وهو ما أكدته فولني بمعايشته لإحدى قبائل البدو في غزة أواخر سنة 1784م ، صورة قال عنها أنه يصعب تخيلها ما لم يشاهدها الإنسان بعينه ، فالبدوي الجشع خارج خيمته هو سخي في قبيلته ومهما يكن ما يمتلكه زهيدا فهو يقاسم غيره عليه فالبدوي صادق في كرمه الذي لا يحسبه فضيلة بقدر ما هو واجب مفروض عليه (فولني، نفسه ، صفحة ص 246)

4 / **المعتقدات عند البدو:** إن نمط الحياة التي يعيشها البدو ، فرضت عليهم الحرية في كل شيء بدءاً بالحرية السياسية في عدم خضوعهم لأية قوة أو تمردهم المستمر عليها كما هو الشأن في علاقتهم بالدولة العثمانية وانتهاء بالحرية الدينية عكس سكان الحضر الذين يعانون حسب رأيه من الاستبداد السياسي و الديني للأتراك وتعاليم الإسلام (فولني، نفسه ، الصفحات ص248-249)

رغم احتفاظ البدو المتأخمين لنفوذ الدولة العثمانية ببعض مظاهر الحياة الدينية ، إلا أنهم يصرحون علانية ، أن الدين ليس لأمثالهم فكيف يمكنهم الوضوء ولا ماء عندهم ؟ وكيف يؤدون الزكاة ولا مال لهم ولم صوم رمضان وهم يقضون السنة كاملة صياماً ؟ وما فائدة الحج إلى مكة والله موجود في كل مكان (فولني، نفسه ، صفحة ص 379) ؟

انطلاقاً من هذه التساؤلات ، يتصرف البدو بحرية تلقائية وبتسامح كبير ، بعيداً عن التعصب الذي شاهده لدى سكان دمشق ، فلقد أبرزوا مراسيم الدين الخارجية ، فلا كهان ولا معابد ولا عبادة منتظمة عند البدو كما قال فولني " يشير فولني إلى فترة إقامته في غزة عند البدو أواخر سنة 1784م ، حين اقترح عليه شيخ قبيلتها المكوث عندهم بدل الرحيل مقابل منحه كل ما يحتاج إليه من مال وفرس وزوجة رغم أنه كافر ، كما يشير إلى حديثه مع شيخ آخر بادره بالصلاة على رسول الله وهو ما جعل فولني يجيبه بعبارة أنا مصغي إليك عوض عبارة صليت عليه، وهو ما أثار غضب رجل تركي من القدس سمع الحديث في وجه البدوي قائلاً :كيف توجه إلى كافر لا يوجه إلا للمؤمنين ؟ فرد عليه البدوي بأنها زلة لسان وانتقد التركي بل ووبخه باهانتة لغريب اقتسم معهم الخبز والملح وهذه ليست من شيم العرب " (Volney, op,cit, pp. p 380- 381) .

5 / **تهديدات البدو :** شكلت تهديدات العشائر البدوية أكبر تحدٍ للدولة العثمانية منذ سيطرتها على بلاد الشام سنة 1517م ، حيث جاءت هذه الاضطرابات في وقت لم تكمل الدولة العثمانية تنظيماتها الإدارية بعد في المنطقة " يشير ابن طولون إلى تعرض قافلة الحج عام 925هـ لهجوم البدو غير أنه فشل لقوة مرافقي القافلة وهو ما أفرح دمشق " (طولون، 1998، صفحة ص 387) ، لا سيما وأن تمرد هذه العشائر كان غالباً ما يتم في المناطق البعيدة عن المراكز الإدارية والتي اتسمت بضعف الوجود العسكري العثماني (بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي ، صفحة ص 147) (فولني، المصدر السابق ، صفحة ص 251)

إن معظم العشائر البدوية أبدت ولائها للسلطة العثمانية الجديدة منذ عهد السلطان سليم الأول بعد دخوله لدمشق و وافقت على دفع ما كانت تدفعه للمماليك من التزامات مالية غير أن البعض منها أعلن تمرد " تمرد ابن الحنش في مناطق صيدا وبيروت غير أنه اضطر بعد عودة السلطان سليم إلى دمشق للفرار نحو ديار بكر أين قتل في

معركة بين أتباعه وقوات الوالي العثماني جان بردي الغزالي" (بيات، المرجع السابق ، الصفحات ص 147-148) ، إن المتصفح لمجموع الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة لبلاد الشام 951-973هـ/1544-1566م يستخلص مجموع التمردات البدوية وهجماتهم خاصة على قوافل الحج مع محاولات الدولة العثمانية لاحتوائها أو القضاء عليها (انظر الملحق رقم 01 من دفاتر المهمة الخاص بتمرد البدو)

رغم قدرة الدولة العثمانية على قمع ثورات هذه العشائر مهما كانت خطورتها نتيجة قوتها العسكرية التي دانت لها بفضلها القارات الثلاث ، إلا أن ما كانت تقوم به القبائل البدوية من غارات على قافلة الحج ظل مصدر قلق وتوتر للدولة العثمانية خاصة وأن البدو ركزوا هجوماتهم على طول طريق الحج الشامي ذهاباً وإياباً على ما مثله هذا الطريق من مسلك للحجاج الشوام و القادمين من إيران وتركيا (خالد صافي ، حسين باشا مكى ، 2005 ، الصفحات ص 32-44) ، حيث تشير الأبحاث التاريخية إلى أن قافلة الحج تعرضت في الفترة الممتدة ما بين 1517-1557م إلى نحو 24 هجوماً من قبائل البدو 10 منها ناجحة و 11 فاشل و 3 هجمات غير واضحة النتائج لعدم توفر المعلومات ، كما شهد القرن 18م لوحده 19 هجوماً وهو ما يعكس نمو شوكة قبائل البدو وتعاضم خطورتهم على طول طريق قافلة الحج (الحكم رقم 67/17 المؤرخ بتاريخ 8 رجب 975هـ/1568م والصادر إلى بكربكي حلب و المتمثل في طلب قافلة حج سمرقند وبخارى بحماية السلطان لهم من أجل تسيير عودتهم إلى بلدانهم لكون طريق إيران غير آمن و صدور الأمر بتلبية طلبهم وإيصالهم أمنين إلى حدود ديارهم (بيات، بلاد الشام في الأحكام السلطانية الواردة في دفاتر المهمة 951هـ/1544م-973هـ/1566م ، 2005 ، صفحة ص 22).

وللحد من تفاقم هذه الظاهرة ، لجأت الدولة العثمانية إلى مجموعة من التدابير بهدف حماية الحجاج ، تمثلت في :

أ/ تجميع الحجاج في نقطة انطلاق واحدة للقافلة .

ب/ تعيين أمير عثماني على القافلة برتبة أمير الحج للإشراف على تسيير شؤون الحج (منذ 1708م عين أمير للحج من ولاية دمشق مع تعيين والي صيدا أو طرابلس أميراً للجردة وهو من أقربائه المباشرين لتعزيز التعاون بينهما (الصباغ، 199 ، صفحة ص 27)

ج/ مرافقة قوة عسكرية بقيادة أمير الحج أو قائد الجردة .

د/ كسب العشائر البدوية بتوزيع مبالغ مالية أو ما يعرف بالصره السلطانية وتقديم لهم في كل موسم حج (بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي ، ، صفحة ص 149) ولكن عندما لم تكن هذه المعونة تدفع بالكامل ، كما حدث خلال الحروب العثمانية النمساوية ما بين 1663-1699م وعدة مرات بالتأكيد خلال القرن الثامن عشر (فاروقي، 2008 ، صفحة ص 165) ، أو أن القبائل تستهين بقيمتها المالية ، ترى في

نهب وسلب الحجاج مكسباً لا يمكن التفريط فيه ،لذا تكثر غاراتهم خاصة عندما تكون القوة العسكرية المرافقة للقافلة غير كافية لحمايتها (فاروقي، نفسه ، صفحة ص 165) كما تمرت الكثير من القبائل الصغيرة احتجاجاً منها على عدم استفادتها من مداخيل الصرة السلطانية (رافق، 1968 ، صفحة ص 12) التي عادة ما تمنحها الدولة العثمانية للقبائل الأكثر نفوذاً وقوة ،وهو ما جعلها تنتقم بمهاجمة القافلة مثلما كان الأمر لقافلة حج سنة 1757م التي كانت تضم بين حجاجها أفراداً من العائلة السلطانية ،حيث تمكن البدو حسب فولني من إبادة معظم الحجاج الذين قدر عددهم ب60 ألف حاج مع سبي العديد من النساء والاستيلاء على ثروات كبيرة مابين مبالغ مالية وبضائع ،ضربة قال عنها فولني أن والدولة العثمانية لا زالت تذكرها إلى الآن (Volney, op,cit , p. 92). وفي رواية أخرى لهذا الاعتداء وبأسلوب تهكمي طريف ،تبين إما سذاجة البدو وبساطة حياتهم أو جهلهم ،حيث أنه من جملة الغنائم التي استولى عليها البدو كانت كميات كبيرة من حبات اللؤلؤ التي ظنوها حبات ذرة فاستعصى عليهم طهيها إذ هموا برميها وهو ما جعل أحد التجار الغزاويين يقايضهم عليها بقبعة حمراء لإدراكه قيمة الحبات (Volney, op,cit, p. 315)

إن هجمات البدو لم تقتصر على قافلة الحج بل تعدتها إلى ثروات القوافل التجارية وهو ما ورد في أحد الأحكام السلطانية الواردة عن أمير سنجق القدس تشير إلى مراجعة أحد النساء للإبلاغ عن اختطاف ابنها من قبل البدو ونهب ممتلكاته مع صدور الأمر بالاهتمام والعمل على تخليصه (بيات، الأحكام السلطانية ،، صفحة 24) ، كما تعرضت قافلة دمشق -بغداد التجارية لعام 1156هـ/1744م لاعتداء وكان بها من الأموال مالا يحصى من جملتها هدية من سليمان باشا العظم والي الشام إلى والي بغداد ليتكرر ذات الإعتداء عام 1772 (نعيسة، 1986 ، صفحة 58).

أمام خطورة هذه التهديدات المستمرة لا سيما في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، اشتدت لهجة الخطاب الرسمي العثماني باعتبار البدو ليسوا مجرد قطاع طرق عاديين فحسب بل يتساووا مع الكفار غالباً وهو ما يعني إمكانية اقتلاع أشجار النخيل العائدة إليهم (فاروقي، المرجع السابق، صفحة 165) .

إن تمرد البدو ظلت طيلة النصف الأول من القرن الثامن عشر مجرد أعمال نهب وسطو على قوافل الحجاج والتجار للتحويل في النصف الثاني من القرن ذاته إلى حركة سياسية وصلت أبعادها وانعكاساتها إلى أوروبا ممثلة في حركة الشيخ ظاهر العمر الزيداني (الصباغ، المصدر السابق ، صفحة 24) .

غير أنه من الضروري لفت الإنتباه إلى أنه وعلى مر الحكم العثماني في المنطقة ، لا ينبغي اعتبار كل البدو عشائر متمردة ، فقسم منها ظل على ولايته للدولة العثمانية وارتبط معها بعلاقات جيدة ، بل وساهم الى جانب قواتها في محاربة القبائل الثائرة ، الأمر الذي جعل السلطة العثمانية تكافؤهم بمنحهم جملة من الامتيازات في البيع و الشراء ، كما أنعمت عليهم بالأموال و الهدايا .

6/ موقف فولني من البدو :نميز عند فولني موقفين من البدو، وهما كالتالي:

أ/ **الموقف السلبي:** عارض من خلاله بعض تصرفات البدو خاصة في ميلهم للغزو السلب الذي علله بحياة التشرد المفروضة عليهم من الحكومة التركية ، فتحولوا من جشعين بسبب قسوة المناخ إلى لصوص جراء الطمع .يصف فولني البدوي بأنه نصاب أكثر منه محارباً ، فان لقي مقاومة لا يرى في الغنيمة ما يبرر المخاطرة بحياته .هم شعب محارب رغم عدم إتقانه فنون الحرب ،كما يعيب عليهم إهمالهم للعلوم و الفنون التي تكاد تكون معدومة والتي تقتصر فقط على معرفة القراءة (فولني، المصدر السابق ، صفحة 255) .

ب/ **الموقف الإيجابي:** يظهر من خلال عبارات الإعجاب و الاستغراب في- ذات الوقت- التي وظفها في كتابه عن حياة البدو ،حيث عظم من حياة البساطة التي يعيشونها مستغرباً عن كيف يمكن لسيد في قومه أن يتولى شؤونه بنفسه فهو من يسرج فرسه ويلجمها ويقدم لها العلف ،كما تقوم نسوته بإعداد القهوة و العجن ،الطهي و غسل الثياب وحمل الماء ،فهي صورة يصعب على رحالة قادم من أوروبا أن يستوعبها (فولني، نفسه ، صفحة 247) لم يخف فولني انبهاره بالمجتمع البدوي ،فهو مجتمع يسوده من الثقة و الكرم والشجاعة ما يشرف أعرق الحضارات الإنسانية ،إذ يكفي أن السلطان العثماني بكل نفوذه لا يستطيع استرداد لاجئ في قبيلته ما لم يقض على قبيلة بأكملها (ضيوف العرب فنتان :المستجير وهو من يستعين بحماية القبيلة والمطانب الذي يشد أطناب خيمته بجوار خيام القبيلة فكأنه منهم) (فولني، نفسه ، صفحة 251) إعجابه بحياة البدو جعلته يقارن بينهم وبين سكان أمريكا الهنود ،متسائلاً لماذا لا نرى عند العرب دراسة الهنود؟ولماذا لا نجد عندهم هذا الميل إلى أكل اللحوم البشرية رغم قساوة الطبيعة التي يعيشونها؟لم هم اجتماعيون عكس الهنود؟

لقد توصل فولني إلى أن الهندي يعيش في منطقة غنية بالمراعي و الغابات و البحيرات وهي بهذا ملجأ للعديد من الحيوانات الأمر الذي جعل الهندي يميل بطبعه إلى القنص ،فهو صياد لا راع،أكسبته مشقة الصيد و القنص الصلابة و الخشونة فصار متعوداً على سفك الدماء ومشاهد الألم، أما البدوي فحالته جد مختلفة لأنه يعيش في مناطق واسعة جذباء لا ماء فيها ولا نبات ،فلا يستطيع أن يكون صياداً لانعدام الطرائد فكان راعياً للجمال مكتفياً باللبن و التمر بعيداً عن سفك الدماء ،فما تعودت يده القتل ولا ارتاحت أذناه إلى أنين الوجود مما جعله يحتفظ بإنسانيته .غير أن هذا الراعي

الرقيق ، غير الجمل بالفرس سهل عليه قطع المسافات فأصبح متشرداً وبعدها كان جائعاً بسبب القحط ، صار لصاً بسبب الطمع وهذه هي صورته الحالية فهو نهاب أكثر منه محارب (Volney, op,cit, p. 374) .

الخاتمة :

إن هذه الدراسة المتواضعة تبرز مدى خطورة البدو على أمن واستقرار الدولة العثمانية في منطقة المشرق العربي وكيف استغلّتهم القوى الأوروبية من خلال كتابات مستشرقها في تشويه صورة آخر خلافة حكمت العالم الإسلامي .

نستخلص من هذه الدراسة جملة من الاستنتاجات تتمثل كالآتي:

- أهمية كتاب الرحالة الفرنسي دي فولني كونه من أهم المصادر الفرنسية التي عايشت البدو واستقرت بينهم لمدة أشهر عديدة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر .

- سوداوية الفكر و الرؤية التي ترجم بهما فولني رحلته خاصة حينما يصف البدو بالجهال وعدم تقديرهم لمصادر الثروة .

- الخطأ في الحكم على البدو الذين يعتبر ترحالهم مرتبط باستبداد الحكم العثماني ، متناسياً أن أصل العرب جميعهم هم البدو ، فتحدث عنهم من منطلق بيئته الأوربية الغربية والغربية عن البيئة العربية .

- تناقض موقفه من البدو كفئة مشكلة لسكان سوريا ومن تمرد ظاهر العمر البدوي كحركة سياسية ، فهو من جهة يعتبرهم قبائل مرتحلة تعودوا على أعمال السلب و النهب غير جديرة بتكوين دولة لبساطة تفكيرها الذي لا يتعدى حدود تأمين الكلاً و الماء ، ومن جهة أخرى يدافع عن حركة ظاهر العمر الزيداني و يبارك حركته الانفصالية ضد الدولة العثمانية .

- العداء الكبير الذي يحمله للدين الإسلامي و للمسلمين وهذا يظهر جلياً من خلال استهزائه بطقوس المسلمين في الصلاة والصيام و الحج و يبارك للبدو حريتهم الدينية ، ولا غرابة في موقف فولني هذا ، إذا علمنا أنه من مفكري الاتجاه الإنساني التنويري الذي تزعمه فولتير في القرن الثامن عشر ، الداعي إلى التحرر من كل القيود السياسية منها و الدينية .

- العداء الشديد الذي يحمله تجاه الدولة العثمانية التي حملها مسؤولية كل استبداد وتجويع للسكان وهو ما يجسد النظرة الاستعمارية الأوروبية للقضاء على الدولة العثمانية بدعوة البدو إلى ضرورة التمرد على العثمانيين.

الملاحق:

1- قائمة بمؤلفات فواني حسب التدرج الزمني :

الرقم	عنوان الكتاب	الاصدار
01	Mémoires Sur La Chronologie D' Hèrothote	1781
02	Voyage En Syrie Et En Egypte Pendant Les Années 1783- 1784- 1785	1787
03	Considérations Sur La Guerre Actuelle Dès Turques	1788
04	Les Ruines, Ou Meditations Sur Les Révolutions Des Empires	1789
05	Tableau Du Climat Et Du Sol Des Etats Unis D'Amérique	1789

قائمة المصادر المراجع :

أولاً: باللغة العربية

- 1- قاسم عبده قاسم، النيل و المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط1، دار المعارف، 1978م.

- 2- فولني ،س،ف، ثلاثة أعوام في مصر و بر الشام ، تر ،إدوارد البستاني ، ج1، ط2، منشورات دار المعارف بيروت 1949م.
- 3- ستانلي لنبول، سيرة القاهرة ، تر، حسن ابراهيم حسن و على إبراهيم حسن ، ط2، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة 2001.
- 4- سورديل جونسون ، معجم الأعلام التاريخي ، تر ، الدكتور ، أ الحكيم و آخرون ، الدار اللبنانية للنشر الجامعية لبنان، 2009م.
- 5- العفيفي عبد الكريم ، موسوعة ألف مدينة إسلامية ، ط1، أوراق شرقية ، 2000م.
- 6- بيتس جوزيف ، رحلة جوزيف بيتس إلى مصر ، مكة المكرمة و المدينة المنورة ، تر ، عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة ، 1995م.
- 7- عاصي حسين ،إبن اياس مؤرخ الفتح العثماني لمصر ، ط1، دار الكتب العلمية ، 1993م.
- 8- الصباغ عبود ، الروض الزاهر في تاريخ الظاهر ، تحقيق ، عبد الكريم محافظة ، ط1، مؤسسة الخدمات و الدراسات الجامعية ، 1999م.
- ذهني إلهام محمد علي ، مصر في كتابات الرحالة في القرن 18 م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1992م.
- ثانيا : باللغة الأجنبية
- 9- Carré jean-Marie, voyageurs et Ecrivains Français en Egypte, Imprimerie de l'Institut Francais d'Archeologie Orientale, 1932.
- 10-Œuvres complètes de C. F. Volney, Te, Bossange Frères Libraires, Paris, 1921.
- 11-le Duc d'Harcourt, L, Egypte et les Egyptiens ,Librairie plan, Paris, 1893.
- 12- Lucas Paul, Voyage Du Sieur Paul Lucas Au Levant, chez Nicolas Smart Libraire.
- 13-Volney Constantin François Voyage En Syrie Et en Egypte Pendant les Années 1783 1784. 1785. T1, BossangeFrères, Libraires Frères , 1787